اعداد / أ.د. مختار رحاب

(الدرس2) : موضوع علم الأنثربولوجيا

إن الأنثروبولوجيا أو ما يسمى"علم الإنسان" نجد أن مجالها البحثي أو التقصي العلمي قائم على "الإنسان" وهذا لا يعني أن لا توجد علوم أخرى تهتم بالإنسان، فهناك العديد من التخصصات والفروع العلمية تهتم بدراسة الإنسان ليس فقط العلوم الاجتماعية، والعلوم الإنسانية، بل حتى بعض فروع العلوم الطبيعية انشغلت بدراسة الإنسان.

فنجد أن العلوم البيولوجية كالبيولوجيا والفيزيولوجيا والطب قد اهتمت بدراسة الإنسان من الجانب التركيب الجسماني البيولوجي والعضوي، ودرست البشر كأفراد أو وحدات بيولوجية قائمة بذاتها، فقد اهتمت البيولوجيا بحياة الإنسان من خلال الاهتمام بالخلايا وكيفية تطورها وانقسامها، والفيزيولوجيا بوظائف الأعضاء التي تشكل مجتمعة الجسد البشري، وانشغال الطب على تتبع جملة الأعراض والأمراض التي تسعى لتعطيل البدن الإنساني أو انتهاكه وإفنائه، والعمل على تشخيص هذه الآفات، ووصف جملة المضادات والأدوية التي تحد منها، وتأخذ بيد الإنسان إلى مستوى صحي أفضل.

أما العلوم الاجتماعية فتهتم هي الأخرى بدراسة الإنسان من زوايا مختلفة وبمناهج تتقاطع أحيانا وتتباين في أحايين أخرى، حيث يهتم علم الاجتماع بدراسة نوعية وشكل الحياة الاجتماعية والنظم الاجتماعية، الاقتصادية، الثقافية، الدينية، السياسية، والحياة المجتمعية عموما لدى الإنسان، في شكل مجموعات، أو زمر، أو عشائر، ومجتمعات.

كما اهتم علم الاقتصاد بدراسة الإنسان سواء أكان منتجا أو مستهلكا، وعملت العلوم السياسية على دراسة الإنسان ككائن سياسي ناخبا أو حاكما أو رعية، أو مواطنا... كما اهتم علو النفس بدراسة الإنسان كحالات فردية من الجوانب السلوكية والسيكولوجية والحالات الشعورية واللاشعورية. كما اهتم علم التاريخ بتدوين حوادث الإنسان في الزمن الماضي، ويعمل في الحاضر على إعادة بناء وتركيب الحوادث الماضية من أجل فهم الحاضر واستشراف المستقبل، ومحاولة الوصول إلى صياغة قوانين يمكن في ضوئها فهم حركية وسيرورة المجتمعات الإنسانية.

اعداد / أ.د. مختار رحاب

كما تهتم الديموغرافيا بعمليات نمو الإنسان ديموغرافيا، وازدياد عدد أفراده، ومحاولة تفسير أسباب الزيادة والنقصان من خلال الاهتمام بعمليتي الولادات والوفيات، وكذا تطور الأجيال.إضافة إلى الجغرافيا البشرية التي تهتم بمحاولة تفسير العلاقة بين البيئة الجغرافية وحياة الإنسان من خلال عمليات الاستقرار أو حركات الهجرة وكذا نوعية الأنشطة لدى الإنسان، ونوعية التركيبة التضاريسية السائدة، وبالتالي فهي تهتم بأثر العوامل الطبيعية على حياة البشر.

و في حدود الأبنية الاجتماعية لهذه المجتمعات، و كانت أعماله هذه بمثابة الأسس الأولى لعلم الانتربولوجيا الاجتماعية .

و تدرس الانتربولوجيا الإنسان في المجال الزمني ، و المجال المكاني و هي تدرس الإنسان سواء كان في الأزمان الغابرة السحيقة ، التي تعود حتى إلى حياته في المجتمعات البدائية و المجتمعات التي لم تعرف الكتابة كما تهتم كذلك بدراسته في الزمن الحالي في حياتنا المعاصرة ، و إذا كان الإنسان هو موضوع الدراسة فانه يمتاز بغرابة في تكوينه الجسمي الفيزيقي ، و من أشده غرابة في الجانب الأخر سواء من حياته النفسية أو جملة السلوكات الصادرة عنه ، و تدرس الانتربولوجيا طرق و أساليب حياة الإنسان ابتداء من المجتمعات البدائية إلى حالته و طرق حياته في المجتمعات المعاصرة .

و لذلك كان موضوع و مجال البحث في الانتربولوجيا يتسم بالاتساع الكبير، و هذا الذي أدى إلى تفرع علم الانتربولوجيا ، إلى فروع متعددة و مختلفة منها ، ما اهتم بمحاولة دراسة التكوين الفيزيقي للإنسان ، و محاولة الكشف عن التنوعات و الاختلافات الحاصلة بين الأعراق البشرية المختلفة ، و فرع يهتم بالجانب الثقافي و الفني و جانب العادات و المعتقدات و الفنون ، و منها ما اشتغل على دراسة الحياة الاجتماعية ، فرع آخر اشتغل على دراسة لغة التواصل بين بني الإنسان " اللغة " وسعت الأبحاث الانتربولوجية للبحث في اصل اللغة و دراسة التنوع في اللغات و اللهجات في المجتمعات البشرية .

ملاحظة توجد فقرات أخرى في القرص المضغوط .

اعداد / أ.د. مختار رحاب

و لعل سائل يسال .لماذا ؟ و رغم هذا الاهتمام من قبل هؤلاء الباحثين، و حملة الأعمال البحثية التي قاموا بها و تركيزهم تحديدا في أبحاثهم ، على نقاط محددة كالنظم الاجتماعية ، و دراستها وفق المنهج الاستقرائي والمنهج التجريبي، و نقول نشوء هذا العلم ؟ والجواب إن هؤلاء الباحثين أو الرواد الأوائل في القرن التاسع عشر ، كانوا لم يقوموا بأبحاث ميدانية، و إنما اعتمدوا في دراساتهم و أبحاثهم على ما حصله الرحالة و المستكشفين من معلومات ، و أوصاف عن تلك المجتمعات التي كانوا قد زاروها و بالتالي فمن علامات كمال علم الانتربولوجيا موضوعا و منهجا ، و هو ضرورة الاعتماد على الدراسة الميدانية / الحقلية

و من ابرز ما تميزت به هذه المرحلة هي ظهور نظرية النشوئية و التطورية التي جاء بها داروين ، و يذكر احمد أبو زيد ، ... انه على الرغم من أن مبدأه بيولوجي في الأصل ، إلا انه كان مفيد للانتربولوجيين ، و في ذلك يقول الأستاذ الفريد كوبر ، و هو احد الانتربولوجيين المعاصرين : " إن هناك نوعا من عدم التناسب بين الإسهام المحدود الذي أسهم به داروين في العلم ، و الذي ينحصر في وضع مبدأ الانتخاب الطبيعي و تجسيده ، و بين كل ذلك التأثير الهائل الذي تركه تأسيس المبدأ البيولوجي على العلم الكلي ، فقد دفع هذا المبدأ علماء القرن التاسع عشر ، إلى البحث عن أصول الأشياء ، و ظهرت بذلك كتابات [1]كثيرة تتناول أصل اللغة و أصل الحضارة و أصل المجتمع ، و العائلة و الدين و ما إلى ذلك بالطريقة نفسها التي تناول بها داروين مشكلة أصل الأنواع

و لكن الباحثين الذين ركزوا على إتباع تطور المؤسسات الاجتماعية، و اتجهوا إلى البحث في الأصل قد اصطدموا بعقبات، مستعصية الحل، خاصة دراسة التطور في العصور القديمة جدا، فاستعانوا بعلم الآثار و لكن ظلت جل أفكارهم تخمينية و ظنية.

و في الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، استكملت الانتربولوجيا الاجتماعية نموها و تطورها ، و ذلك ما صنفت المجتمعات البشرية على أسس أبنيتها الاجتماعية ، و ليس على أسس ثقافتها فحسب ، و هذا الذي ميز الانتربولوجيا الاجتماعية عن الفروع الانتربولوجية الأخرى .

---

[1] - احمد أبو زيد : الطريق إلى المعرفة .

اعداد / أ.د. مختار رحاب

و كان العديد من الباحثين الانتربولوجيين قد قاموا بعدة دراسات حقلية لبعض المجتمعات ، و من بينهم نذكر : " مورغان " ، " بواز " و غيرهما ، غير إن الباحث هادون و من خلال دراسته بعض قبائل الهنود الحمر ، و بعض قبائل الاسكيمو ، قد استطاع أن يحدد أساسيات منهج الانتربولوجيا الاجتماعية ، و يجذب بعض العلماء إلى ميدان هذا العلم الجديد ، بعدما تخلوا عن اختصاصاتهم الأصلية و أصبحوا أئمة الانتربولوجيا الاجتماعية في القرن العشرين ، من أمثال العالم " ريفر " الذي كان متخصصا في علم النفس ، و العالم " سليجمان " الذي كان متخصصا في علم الأمراض ، بل أن " هادون " نفسه ، تخلى عن تخصصه الأصلي في " الحيوانات البحرية " و تحول إلى الانتربولوجيا الاجتماعية[2].

و إذا كان القرن التاسع عشر قد شهدت فيه الانتربولوجيا الاجتماعية نموها و تطورها و استقامتها على سوقها ، فإنها في القرن العشرين ، ستعرف ازدهارا هاما .

2-3- القرن العشرين :

أهم ما ميز الانتربولوجيا مع بداية القرن العشرين هو اصطباغها بصبغة التخصص ، و ذلك بتركيزها على دراسة البنى الاجتماعية للمجتمعات ، لاسيما إجراء الدراسات الميدانية في المجتمعات القديمة ، و من أمثلة الدراسات الميدانية التي أجريت في ذلك الوقت ، الدراسة التي قام بها " راد كليف براون "، على سكان خليج البنغال، و دراسة مالينوفسكي " لسكان جزر التروبرياند لمدة أربع سنوات ، حيث أتقن لغة الأهالي، و بالتالي تميز كانتربولوجي يفهم حياة الناس و علاقتهم الاجتماعية ، و توصل إلى المدلولات الاجتماعية العادات و تقاليد هؤلاء السكان .

و في الربع الأول من هذا القرن ، اتجه اهتمام الانتربولوجيين إلى دراسة ظاهرة الأخذ و العطاء بين الثقافات الإنسانية ، و في هذا المجال يلاحظ أن العامل التاريخي ، من وجهة نظر تاريخ الطريقة الانتربولوجية ، احتل مكان الصدارة في دراسة المجتمعات ، حتى في المحاولات المبذولة لإثبات ظاهرة

[2] عبد الحميد لطفي : الانتربولوجيا الاجتماعية ، دار المعارف ، 1979 .

اعداد / أ.د. مختار رحاب

الانتشار الثقافي ، الناجمة عن الاحتكاك بين الشعوب ، و يعود ذلك إلى أن هؤلاء الباحثين كانوايدركون جيدا أهمية البيانات التاريخية في فهم العوامل الثقافية الدينامية[3].

و في الثلاثينات قام " براون " بتنظيم و تطوير معهد الانتربولوجيا في جامعة أكسفورد ، و أرسلت فرق بحثية انتربولوجية ، و أجرت مجموعة من الأبحاث في العديد من المجتمعات الإفريقية كما تم إبان تلك الفترة استحداث : المعهد الدولي الإفريقي في جامعة أكسفورد .

و في النصف الثاني من القرن العشرين تابعت الانتربولوجيا الاجتماعية تطورها و ازدهارها ، و حصل تقارب بينها و بين الانتربولوجيا الثقافية ، صار الاعتماد على المنهج التجريبي ، بدلا من المنهج المقارن ، لما للمنهج التجريبي من مزايا و فوائد منها إحداث التراكمية و الاستمرارية في البحث الانتربولوجي ، فنتائج بحث انتربولوجي مثلا في وقتنا الحالي ، قد تكون بمنطلق أبحاث أخرى في الوقت اللاحق .

---

[3] رالف لينتون : الانتربولوجيا و أزمة العالم الحديث ، ترجمة : عبد الملك الناشف ، المكتبة العصرية ، بيروت 1967 ، ص 259